

اللغات السرية عند المجتمعات المعادية: مقارنة لسانية اجتماعية

The secret language in underworld societies: sociolinguistics approach

فاطمة العماوي *

كلية الآداب والعلوم الانسانية عين الشق،

جامعة الحسن الثاني الدار البيضاء

ملخص المقال:

تعتبر اللغة السرية مبحثا في غاية الأهمية، خصوصا في الدراسات السوسiolسانية، وهو ما يعرف في معظم الدراسات الغربية بالمجتمع المعادي/اللغة المعادية، إذ يعتمد المتكلم من خلالها الى تعمية المعنى واخفائه عن المجتمع المحيط به. في هذا المقال تطرقنا الى بعض خصائص هذه اللغة ووظائفها، في علاقتها بالظروف الاجتماعية والنفسية المتعلقة بمتكلميها، كما عرجنا على الآليات اللسانية الموظفة في توليدها.

The Secret language is of great importance in sociolinguistics, since it provide means for researchers to understand underworld societies, whose individuals develop this language to prevent outsiders from understanding their communication. In this article, I focus on some characteristics of this language through showing its functions, and understanding how it is emerged as form of supplying some psychological need of its speakers .

الكلمات المفتاح: المجتمعات المعادية - اللغة المعادية - التعمية - لغة سرية- آليات توليد اللغات السرية- اعادة المعجمة- التضخيم المعجمي- النموذج المستورد- النموذج المحلي.

* كلية الآداب والعلوم الانسانية عين الشق، جامعة الحسن الثاني الدار البيضاء.
أتقدم بالشكر الجزيل للدكتور فيصل الشرايبي لتجشمه عناء مراجعة هذا المقال.

مقدمة:

دأبت المجتمعات على تجديد طرقها في التواصل اللغوي، إلا أنها لم تخرج عن السياق العام للغة المعيار، بكل تجلياتها الصوتية والصواتية، لكن نظرا لعوامل يتقاطع فيها الاجتماعي باللغوي، اضطرت المجموعات البشرية داخل المجتمعات الكبرى الى اختراع طرق جديدة للتواصل اللغوي فيما بينها، والأدل على ذلك الأشكال اللغوية المختلفة التي تظهر بين الحين والآخر، في المعاهد الدراسية بين الطلبة، وفي الأسواق بين التجار، و بين الأصحاب والخلان... إلا أنها تظل تعابير لغوية محدودة الوجود والانتشار، وسرعان ما تندثر مع تفكيك شفراتها واتساع رقعة متكلمها.

وفي جانب آخر نجد أشكالا لغوية استطاعت أن تثبت ذاتها وتحقق الاستمرارية وتحافظ على سريتها وعذريتها بين المتكلمين بها، ومنها اللغة السرية داخل السجون، ولغة المجموعات الخارجة عن ضوابط المجتمع، حتى سميت بالمجتمعات المعادية، مما يطرح عدة تساؤلات: ما هي خصائص هذه المجتمعات لغويا وسلوكيا؟ وكيف ينظر اليها على المستوى العالمي؟ ما هي المسميات التي تطلق عليها من بلد لآخر؟ ما هي الأسباب التي تكمن وراء ظهور هذه اللغة؟ وما هي وظائفها داخل المجموعة المعادية؟ كيف استطاع أفراد المجموعة تطويرها؟ وما هي المكنزمات اللسانية التي أنتجتها؟ كل هذه الأسئلة وغيرها سنجيب عنها من خلال هذا المقال مستعينين بالتجربة الميدانية التي نمتلكها من خلال تعاملنا مع السجناء المغاربة أحداثا وكبارا.

يُقصد بالمجتمعات المعادية **anti-society** مجموعة من الأفراد المنعزلين عن المجتمع، كونوا مجتمعا خاصا بهم على هامش المجتمع العادي، من قبيل مجتمع اللصوص والسجناء، أو مجتمع المتدينين المكفرين للمجتمع أو عالم المافيات التي تضطر إلى عزل أفرادها عن المجتمع الخارجي لتأمين مصالحها والهروب من الرقابة المجتمعية، ويعد هاليداي¹ أول من استعمل هذا المصطلح في مقالة مشهورة تحمل عنوان اللغة المعادية **Anti-Language** لتمييز فئة من المجتمع تتميز بقوانين وقيم خاصة بها، فضلا عن لغة منفردة، لا يفهما إلا من انتمى إلى مجتمعهم الخاص، فلغة العصابات والسجناء هي لغة مشفرة، رغم أن الجمل المستعملة لا تختلف تركيبيا ولا معجميا عن الحديث اليومي.

تعد هذه اللغة حاجزا يمنع الأفراد الخارجين عن المجموعة من ولوج فضائهم التداولي، لذلك فهي لغة سرية ومن يمتلكها يحظى بعضوية واعتراف المجموعة.

¹ -هاليداي، اللغة المعادية.

إن المجتمع المعادي هو مجتمع بديل عن المجتمع العادي، له أعراف وتقاليد بل مبادئ من الصعب اختراقها، وإذا كان المجتمع المعيار أو العادي يمتلك لغة رسمية يتحدث بها جميع أفراد المجتمع، فإن المجتمع المعادي كذلك يمتلك لغته الخاصة به يسميها 'هاليداي' باللغة المعادية **Anti-Language**

1-المصطلحات المحايدة لمصطلح اللغة السرية:

تتعدد المصطلحات العلمية التي يستعملها الدارسون لتوصيف لغة المجتمعات المعادية ويعود هذا الاختلاف إلى عدة اعتبارات نذكر منها:

- اختلاف المنطلقات المعرفية للدارسين في معالجة الموضوع ؛ فهاليداي يعالج الموضوع من منطلق سوسيو لساني، بينما "ماليك" ، الذي جمع مفردات الغوص لدى سجناء البنغال ولصوصهم، ينطلق من منظور لغوي ، لذلك اختلفت تسمياتهم.
- يأتي الاختلاف كذلك من اللغات المتباينة في تسمية الأشياء فكل لغة تمتلك مفرداتها في توصيف الظواهر الطبيعية وكل مجتمع يضع اصطلاحات خاصة به لهذه الظاهرة.
- لا يوجد تخصص معرفي قار لدراسة الظاهرة حيث إن البحث في اللغة السرية ينتمي إلى تخصصات متباينة من حيث المنهج والرؤية.

يمكننا أن نحصي مجموعة من الأسماء تشير تقريبا إلى نفس الظاهرة وهي على الشكل الآتي:

- **Cant** هي لغة ذات طابع سري تم اختراعها داخل جماعة معينة ولا تفهم إلا داخلها، هناك رأيان يفسران أصل الكلمة : الرأي الاول يقول أنها كلمة تنتمي إلى اللغة الايرلندية اشتقت من كلمة **caint** وتعني الكلام، أما الرأي الثاني فيرجع أصلها إلى اللاتينية **cantāre** وتعني يغني، هناك مفردة تستعمل بالترادف مع **cant** هي مفردة **cryptolect**
- **thieves' cant**: اللغة السرية التي يستعملها المجرمون واللصوص لتجنب رقابة رجال الشرطة والمجتمع بصفة عامة، أول من قام بجمع اللغة السرية الخاصة باللصوص والمجرمين هو توماس هارتمان في القرن السادس عشر، في عام 1811 نشر قاموسا يتضمن الألفاظ المبتذلة والعامية.
- **Argot** : لغة سرية تتواصل من خلالها مجموعة بشرية لمنع الغرباء عن المجموعة من فهم حديثهم، كما جاء في رواية البؤساء 1862 لفيكتور هيغو يسميها بلغة الظلام² ولغة البؤساء³,

² – the language of the dark

³ – the language of misery

وقد اشتقت الكلمة من لفظة *argotiers* الفرنسية، وكانت تطلق على جماعة اللصوص⁴ في ذلك الزمان، وتبنى 'الاركو' على اللغة المعيار المتداولة في المجتمع حيث تمتلك رصيذا كبيرا من المفردات المشتركة مع المعجم المتداول في اللغة العادية، وأحيانا تشير مفرداتها إلى معاني غير معروفة عند الناس⁵.

• **AntiLanguage** : اللغة المعادية أول من وضع هذا المصطلح وعرفه اللساني "ميشال الكسوندر هاليداي" الذي استعملها في سياق حديثه عن لغة المجموعات المعادية للمجتمع - **Anti Society** ويقصد بهم جماعة منعزلة عن المجتمع أو بديلا عنه صنعها أفراد هذا المجتمع من أجل التفرّد، فلغة بديلة موازية للغة المعيار وتنتشر هذه اللغة المعاكسة للغة المجتمع في السجون خاصة⁶.

• **Underworld Language** : هي لغة أفراد المجتمع السفلي يتحدث بها المجرمون والسجناء في ولاية البنغال الغربية، وقد قام بدراستها وتوثيقها اللغوي المشهور 'مليك Bhaktiprasad Mallik' في أطروحته للدكتوراه⁷ تحت عنوان : 'لغة العالم السفلي في ولاية البنغال الغربية'.

• **secret language** : اللغة السرية، وهي لغة خاصة بمجموعة بشرية محدودة متداولة سريا بين أفراد داخل المجموعة لذلك سميت بالسرية، لأن الخارجين عن المجموعة أي الغرباء لا يفهمونها.

• **Prison Slang** : لغة عامية نابية يستعملها المجرمون والمعتقلون في السجون، تتضمن هذه اللغة ألفاظ وعبارات تعبر عن السلوكات الاجرامية والحياة السجنية، والحالات القانونية والحياة في الشوارع، وقد هجرت نطاق السجون لتستوطن اللغة العادية. حسب 'أندريا ماير'⁸ ظهرت مفردة **slang**، للمرة الأولى في انكلترا في القرن الثامن عشر وكانت تستعمل بالترادف مع كلمة **cant** و **argot**.

• **Grypserka** هذه المفردة تنتمي إلى اللغة البولونية ذكرها اللغوي البولوني آدم بودجريك⁹ في مقالة مشهورة عنوانها 'الحياة الثانية'¹⁰ ويقصد بها لغة معادية تنتشر بالسجون البولونية.

⁴ - les argotiers

⁵ - Valdman, Albert (May 2000). "La Langue des faubourgs et des banlieues: de l'argot au français populaire". The French Review (in French). American Association of Teachers of French. 73 (6): 1179–1192

⁶ Halliday, M. A. K. (1978). Language as social semiotic: The social interpretation of language and meaning. London, England: Edward Arnold.

⁷ Bhaktiprasad Mallik , (1972), Language of the underworld of West Bengal , Sanskrit College

⁸ - Mayr, A. (2012). Prison Language. The Encyclopedia of Applied Linguistics. doi:10.1002/9781405198431.wbeal0954

⁹ - Adam Podgórecki

¹⁰ Podgórecki, Adam , 1973 "Second Life" and Its Implications. Mimeograph

2-أسباب بروز اللغات المعادية أو السرية:

يُعد المجتمع المعادي، حسب 'هاليداي' ، أسلوباً من أساليب مقاومة المجتمع العادي أو المعيار ويمكن أن تتخذ هذه المقاومة، إما تعايشاً سلبياً، أو عداءً قد يصل أحياناً إلى العنف¹¹ ، ومن ثم فهذه اللغة هي الوسيط الدلالي أو الرمزي الذي يترجم هذه المقاومة الشرسة لأفراد المجتمع المعادي ضد مؤسسات المجتمع المعيار ، فحيثما يوجد نسق من الرموز اللغوية توجد معه قيم تعكس النسق الفكري للأفراد المتحدثين بها، فالسرية التي تهيمن على معاملات أفراد المجتمع المعادي، لاسيما عند العصابات الاجرامية والمجموعات السجنية، أرخت بظلالها على استعمال اللغة لأجل ابداع طرق خاصة في تشفير المفردات اللغوية بصورة مخفية .

يورد هاليداي دافعا آخر وهو تكوين وعي مقاوم للقيم التي يمارسها المجتمع الطبيعي، فمن أجل اثبات الخصوصية الثقافية للمجتمع المعادي تم إعادة بناء قيم ومعاملات خاصة بأفراد المجتمع المعادي داخل السجون من أجل إنتاج مجتمعا بديلا كردة فعل نفسية عن الرفض الذي يبديه المجتمع ككل ضده .¹² فهذه اللغة بما تملك من قدرة رمزية على بناء فضاء دلالي استعاري يعوض أفراد المجموعة من حرمانهم من الحياة .

هناك نموذجان متنافسان في تفسير ظهور اللغات السرية :

- يسمى النموذج الأول بالنموذج المحلي **model indigenus** الذي يعزو أسباب نشأة اللغة المعادية إلى ظروف البيئة السجنية، يتبنى هذا النموذج التفسيري الباحثان الاجتماعيان 'كليمر' **Clemmer** و'سيكس' **Sykes** .
- أما النموذج الثاني فيسمى بالنموذج المستورد **importation model** الذي يزعم أن السجن يأتي بلغته المعادية من الخارج إلى داخل السجن.

وقد بينت مجموعة من الدراسات أن اللغات السرية هي مزيج من الاثنين المستورد والمحلي¹³ .

3-وظائف اللغة السرية:

يمكن تحديد ثلاث وظائف أساس تؤديها لغة الغوص داخل المجموعات المعادية بصفة عامة وداخل السجون بصفة خاصة :

¹¹ It is a mode of resistance, resistance which may take the form either of passive symbiosis or of active hostility and even destruction" M. A. K. HALLIDAY Anti-Languages

¹² - . Its social system together with its moral code provides its members with informal means to gain support, power, and status, thereby lessening "the pains of imprisonment" ANDREA MAYR .Prison Language

¹³ - Andrea Mayr .Prison Language

1.3-الوظيفية النفسية للغة المعادية:

في ما مر أشرنا إلى الوظيفة النفسية للغات السرية باعتبارها دعماً أو تعويضاً نفسياً للحرمان الاجتماعي الذي يشعر به السجناء خاصة أو أفراد المجتمع وهذا يؤيد الكثير من الدراسات التي أنجزت في مختلف بقاع العالم في موضوع لغة السجون وقد أشرنا إلى بعضها في لائحة المراجع.

2.3-الوظيفة الاجتماعية

الإنسان بمختلف جنسياته ولغاته يملك هوية خاصة به، ولا نقصد بالهوية مجموع الخصائص البيولوجية التي تميزهم عن باقي المخلوقات فحسب، إنما نشير بها إلى الجوانب الاجتماعية والنفسية التي تجعلهم بشراً يعيشون داخل مجموعة بشرية، لكن أحياناً يتعرض أفراد النوع البشري لرفض اجتماعي بسبب ظروف معينة مثل السجن أو غيره، فيستبعدهم المجتمع إلى مؤسسات خاصة من ضمنها السجون لإعادة تربيتهم وإدماجهم، إزاء هذا الوضع يكون السجين في وضع اجتماعي يضطر معه إلى تطوير هوية رمزية تعويضاً عن الهوية التي حُرم منها جراء استبعاده من المجتمع المعيار.

اللغة هي الوسيلة الأساس التي يعوض بها السجين ما حرم منه، فيشرع في بناء هوية اعتبارية موازية للهوية الخارجية. هوية استعارية تقوم على تفرغ الكلمات المستعارة من العالم الخارجي وملئها بمدلولات خاصة به .

3.3-الوظيفة السرية للغة المعادية:

لكن تبقى أهم الوظائف التي من أجلها وجدت اللغة المعادية هي إخفاء المعنى وتعمية الخطاب المتداول داخل المجموعة المعادية، فنظراً إلى الحراسة المشددة الموجودة داخل السجون التي تمنع تسريب مواد مضرّة بالصحة النفسية للسجين مثل المخدرات وأقراص الهلوسة أو مواد حادة قصد استعمالها في العنف السجني، فمن أجل الإفلات من المراقبة السجنية يلجأ السجين إلى تشفير تواصله مع أقرانه باستعمال مفردات معروفة المبنى لكنها مجهولة المعنى .

إن الدافع الأساس الذي يغوي السجناء لاستعمال اللغة السرية هو الرغبة في إبقاء معاملات أفراد المجموعة المعادية في سرية تامة مستبدين الغرباء، لكن ليس ذلك هو الدافع الوحيد فهناك عوامل نفسية واجتماعية عميقة تتحكم في توظيف الملكة اللغوية.

4-مميزات وطرق توليد اللغة السرية:

إن ما يميز هذه اللغة، حسب هاليداي، هو كونها لا تضيف مفردات جديدة إلى معجم اللغة العادية وإنما الاختلاف يكمن فقط في تضمين المصطلحات القديمة معاني جديدة، سمي هذه الظاهرة بإعادة المعجمة

relexicalisation هذه الآلية ليست شاملة، إنما هي جزئية بحيث لا نجد لكل مفردة عادية مقابلاً لها في اللغة المعادية، من جهة أخرى فإن اللغة المعادية لها نفس نحو وتركيب اللغة العادية رغم أن المعجم مختلف شيئاً ما عن اللغة المعيار.

يشد الاختلاف الدلالي لمفردات اللغة المعادية عن اللغة المعيار في المجالات الأكثر حيوية بالنسبة لأفراد المجتمع المعادي من قبيل الأفعال الإجرامية، كل ما يتعلق بالشرطة، المحكمة، الأحكام القضائية.. الخ.

توجد آلية أخرى تساهم في تضخم المعجم الغوصي للعالم المعادي، وهي ما يسميه بالتضخم المعجمي **overlexicalisation** حيث نجد للمعنى نفسه مجموعة كبيرة من التسميات مثلاً للقنبلة 21 لفظاً وللشرطة 41 لفظاً... الخ.

كيف يتولد اللفظ المعادي؟

فضلاً عن الآليتين اللتين ذكرناهما آنفاً إعادة المعجمة والتضخيم المعجمي ذكر هاليداي، ناقلاً عن ماليك، مجموعة من الآليات تقضي إلى توليد اللفظ الذي ينتمي للغة السرية منها :

* تغيير وضع الحروف مثل تكون لفظة **kodan** من لفظة **dokan** التي تعني المتجر، **karca** من كلمة **cakar** التي تعني الخادم.

* تكوين المفردة بالتراجع من قبيل تكوين كلمة **khum** من كلمة **mukh** التي تعني الفم.

* تغيير الصوامت مثل تكوين **kona** من كلمة **sona** التي تعني الذهب .

* إدماج مقاطع صوتية مثل: تكوين **bituri** (امرأة عجوز) من **huri** .

* تغيير في نبر بعض الكلمات:

بالنسبة لمورفولوجيا الكلمات السجنية ذكر 'هاليداي' ناقلاً عن 'ماليك' العمليات الاشتقاقية التي تعتري الكلمات مفضية إلى تغيير في الصورة اللفظية لها، منها على الخصوص :

-إضافة لاحقة آخر الكلمة مثل تكوين الكلمة **kotni** من الكلمة الإنجليزية **cotton** ، **dharan** من الكلمة **dhara**.

-النحت نحو تكوين الكلمة المنحوتة **bilakhana** من الكلمتين **bila** و **khana** .

-الاقتراض مثل اقتراض كلمة **khalas** من الكلمة العربية تخلص.

خاتمة:

في ختام هذه الدراسة يمكن الخروج بمجموعة من النتائج ذات ارتباط باستعمال اللغات السرية داخل المجتمعات المعادية نذكر منها:

- تحت وطأة ظروف اجتماعية تلجأ بعض المجموعات البشرية داخل المجتمع إلى اختراع لغة سرية خاصة لا يفهمها إلا الأفراد الذين ينتمون إلى المجموعة ، إما من أجل تأمين عملية التواصل داخل المجموعة حتى لا تخترقها أجهزة الرقابة وإما من أجل خلق فضاء قيمي الذي يُعد نوعاً من أنواع التعويض عن الحرمان من الاعتراف الذي يعاني منه أفراد المجموعة .
- تنزل اللغة السرية أو المعادية بالنسبة للمجتمع المعادي منزلة اللغة المعيار بالنسبة للمجتمع العادي وتعد قناة تواصلية فعالة تساهم في خلق فضاء تداولي، لا تسهل من خلاله عملية التواصل والتشهير فحسب، بل تخلق مجتمعا له تقاليد وأعراف خاصة .
- توجد عدة آليات لسانية يوظفها أفراد المجتمع المعادي من أجل تشفير عملية التواصل داخل المجال التداولي للمجموعة، وقد وقفنا على بعضها: كتغيير نبر بعض الكلمات، تغيير وضعية الصوامت، التضخيم المعجمي، إعادة المعجمة... الخ

لائحة المراجع:

- **Bert Little** [1982], Prison Lingo: A Style of American English Slang, Anthropological Linguistics .Vol. 24, No. 2.
- **Bhaktiprasad Mallik** , (1972), Language of the underworld of West Bengal , Sanskrit College
- **Clemmer**, Donald. [1940]. The prison community. New York: Rinehart.
- **Halliday**, M. A. K. (1978). Language as social semiotic: The social interpretation of language and meaning. London, England: Edward Arnold.
- **Halliday**, M.A.K. [1976] "Anti-languages", American Anthropologist 78(3), 570-584.
- **Mayr**, A. (2012). Prison Language. The Encyclopedia of Applied Linguistics. doi:10.1002/9781405198431.wbeal0954
- **Patrick Ellis**, The Prison-House and Language: Modern American Prison Argot, 2005 in <http://homes.chass.utoronto.ca/~cpercyc/courses/6362-ellis>.
- **Podgorecki**, Adam, 1973, "Second Life" and Its Implications. Mimeograph